طبق الاصل

مؤيد نعمة

مصور مقتل الجريح العراقي في الفلوجة يروي قته

الشيء الذي لم يكن صحيحا

أثارت إذاعة فلم قصير المدة الأسبوع الماضي ضجة عالمية لأنه يصور مشاة البحرية وهم يطلقون النار على مقاتل عراقي جريح في الفلوجة. ونشر أمس المصور الذي التقط المشهد نفسه وهو "كيفين سايتس" رسالة مفتوحة إلى مشاة البحرية الذين يعمل معهم بصورة دائمة وذلك على موقعه الالكتروني.

منذ إطلاق النار في المسجد انتابني شعور بعدم قدرتي على إبلاغكم مباشرة بما رأيته أو أنني لم أشرح لكم العملية التي شاهدها العالم أيضاً.

فكما تعلمون فإني لست سائحاً في منطقة حرب يحمل آلة تصوير دون أن يفهم تلك المشاهد القبيحة التي تقع أثناء القتال. لقد أنفقت معظم السنوات الخمس الأخيرة في تغطية الصراع العالمي غير أني لم أكن ذات يوم ابداً مراسلاً انتهازياً لاهم لي إلا أن يقترف الناس السيئات كيما تقع تحت آلة تصويري.

وقد صدمت في هذا الأسبوع بعد أن صورني الناس على أني ذلك النوع من الناشطين المناهضين للحرب. غير أن أي إنسان شاهد تقاريري في التلفزيون أو قرأ ما أبعث به سيدرك المدى الذي ذهبت إليه في الصدق والمباشرة دون أن أكون أداة للدعاية بيد هذا اليسار أو ذاك اليمين. غير أني وجدت نفسي موضوعاً مثاراً للجدل في إرسال تقارير عن ما أراه يحدث أمامي ومتدحرجاً أمام آلة التصوير.

وقد حان الوقت لأن تعرفوا الحقيقة بكلماتي أنا عن ما شاهدت دون الضرب على وتر جندي مشاة مذنب أو بريء وما بينهما. أريد لكم أن تقرأوا تفاصيل وصفي ثم تقررون حسب حكمكم. وهنا أبدأ: كان صباح يوم السبت وكنا معتصمين في مواقعنا منذ ليلة أمس، وموقعنا عبارة عن طريق ممهد بين مجموعة بنايات على الحافة الجنوبية من المدينة. كان التقدم سريعاً غير ان جيوب المقاومة كانت لا تزال موجودة والحقيقة إننا كنا نواجه القناصة من الأمام ومن الخلف.

استخدمت فرق الأسلحة مدافع ٨١ ملم حيث استهدفوا وميض فوهات المدافع. أما الدبابات فقد قامت بضرباتها الخاصة وفي منتصف الصباح أبلغنا إننا نسير نحو الشمال ثانية وسنعود ثانية لتطهير جزء من المكان الذي مررنا به أمس. وكانت هناك أيضاً تقارير أن المسجد الذي قتل فيه عشرة وجرح فيه خمسة ربما يكون أعيد احتلاله أثناء الليل. وقررت أنا اتركم يا شباب والتحق مع احدى مفارز المشاة وهي تنتقل من بيت إلى بيت عائدة نحو المسجد. كانت الكثير من الدور فارغة من سكانها غير أنها مملوءة بالأسلحة وخارج منزل احد الناس قذف أحد أعضاء المفرزة بقنبلة على الحائط وسقط كل من في الداخل متكوماً ومن بينهم أنا.

وبينما يدخل مشاة البحرية إلى البيت تتبعت لهيب القنبلة إلى داخل فناء الدار وعندما اختفى الدخان استطعت أن أشاهد خلال ناظوري ناراً تندلع بجانب كومة كبيرة من القذائف المضادة للطائرات هرعت صائحاً أن يجب علينا التحرك. وفور خروجنا من البيت أخذت الانفجارات تتصاعد بعد أن التهمت النار القذائف.

وفي تلك اللحظة سمعنا الدبابات وهي تطلق مدافع ٢٤٠ الميكانيكية باتجاه المسجد. وقد صرخ أحد مشاة البحرية من مفرزتي "هل هناك مشاة بحرية في هذا المكان"؟ وعندما وصلنا إلى المدخل الأمامي شاهدنا أن هناك مفرزة أخرى وقد دخلت قبلنا.

ثم سألهم الملازم "هل هناك أحد في الداخل"؟

وأشار أحد جنود البحرية إلى إنهم خمسة.

وسأل الملازم: هل أطلقت عليهم النار؟

فأجاب نفس الجندي "هذا ما قام به (روجر) يا سيدي"

وعندما سئل "هل كانوا مسلحين" أجاب الجندي بلا أبالية ثم دخلنا جميعاً إلى المسجد.

وبعد دخولنا مباشرة شاهدت نفس أكياس الجثث السود منتشرة حول المسجد ونفس الأموات من اليوم السابق ولكني دهشت أكثر حين شاهدت نفس الرجال الخمسة الذين جرحوا منذ الجمعة كذلك، ويبدو أن أحدهم الآن مات وثلاثة ينزفون حتى الموت من جروح إطلاقات نارية حديثة.

كان الخامس مغطى جزئياً ببطانية وهو في نفس المكان ونفس الحالة التي كان بهما أمس بالقرب من العمود. لم تطلق عليه النار ثانية. نظرت بإمعان إلى الموتى والجرحى. لا يبدو أن عليهم آثار إطلاقات في أي مكان.

وقلت إلى الملازم "هؤلاء نفس الجرحى منذ أمس" ثم ألقى نظرة حول المكان وخرج من المسجد وهو يحمل جهاز الاتصال ليبلغ عن الموقف إلى مقر الكتيبة المتقدم.

شاهدت رجلاً شيخاً كبيراً في كوفية حمراء مستلقياً على الجدار الخارجي وشاهدت آخر وجهه على الأرض بالقرب منه ويده في حجره وكأنه يحاول أن يتغطى. ثنيت أقدامي بجنبهم بضع بوصات لتصويرهما بالفيديو ثم لاحظت أن الدم الذي يجري من أنف الرجل الكبير السن يتدفق وهذا دليل على انه يتنفس وكذلك الرجل الذي يليه.

وأنا مستمر في التصوير سار جندي من البحرية باتجاه الجثتين الأخريين على مسافة ١٥ قدماً غير إنهما كانا مستلقيين على نفس الجدار الخارجي ثم سمعته يشتمهما شتماً شنيعاً.

وعن طريق ناظور تصويري شاهدت الجندي وهو يرفع فوهة بندقيته باتجاه العراقي الجريح ولم تكن هناك تحركات مفاجئة أو اقتراب أو اندفاع بالسلاح.

وعلى كل حال فربما اعتقد جندي البحرية أن الرجل مثل نوعاً من الخطر. فلعله كان يريد أن يقوم بتغطيته في حين يقوم جنود البحرية بالبحث عن الأسلحة. وبدلاً من كل هذه الاحتمالات قام بسحب الأقسام وكانت هناك زخات من الرصاص على الحائط الخارجي حتى سقطت رجل الجريح على الأرض.ثم قال جندي بحرية في الخلف "لقد مات الأن".

وفي هذه الأثناء فاني ما أزال أدير عدسة جهاز تصويري، شعرت بالتقزز من أعماقي. ثم تحرك جندي البحرية بصورة مفاجئة وسار بخطى سريعة بعيداً عني تماماً باتجاه الجريح الخامس الملقى بجانب العمود. كان على قيد الحياة بصورة واضحة جداً وكان ينظر من تحت بطانيته غير أنه قام جنديان آخران في الغرفة بدفع أسلحتهما حين حاول الرجل الكلام.

لقد كنت مشلولاً لبرهة من الزمن لأني ما أزال أصور الرجل الكبير السن في المشهد الخلفي. نهضت بعد مدة وأبلغت جنود البحرية ثانية نفس ما أبلغت به الملازم أن ذلك الرجل وكل هؤلاء الرجال الجرحى هم أنفسهم جرحى الأمس. لقد نزعت أسلحتهم وعولجوا ثم تركوا هنا.

وفي هذه الأثناء أدرك الجندي الذي أطلق النار أني موجود في الغرفة حيث جاء لي وقال "أنا لم أعرف سيدي - أنا لم أعرف". لقد تحول الغضب الذي كان موجوداً قبل لحظات إلى خوف وتخوف.

ثم حاول الرجل التحدث معي بالعربية.

ثم قفز لي سؤال "لماذا ترك هؤلاء الرجال الخمسة في المسجد؟"

وقد أجاب على هذا السؤال القاضي العقيد (بوب ميلر) الذي قابل جنود البحرية المتورطين بعد الحادث. فبعد أن عولجت جروحهم يوم الجمعة من قبل فرقة البحرية (وأنا شخصيا شاهدت ضماداتهم) كان يجب نقل هؤلاء خلف الخطوط حين يسمح الوقت والظروف.

كانت المنطقة على كل حال ساخنة وكانت هناك خسائر أمريكية يجب إخلاؤها أولاً. كما إن المفرزة التي دخلت المسجد يوم السبت كانت تختلف عن تلك التي قادت الهجوم يوم الجمعة.

ومن المعقول الافتراض أنهم لم يعرفوا هؤلاء المتمردين وأنهم دخلوا الاشتباك أمس ثم اسكتت نيرانهم.

ومع ذلك فإن هذه المفرزة الجديدة عندما اشتبكت مع المتمردين الجرحى فقد كانوا يعتقدون حقاً أنهم يواصلون القتال أو أن أحدهم شكل تهديداً وقد علم هؤلاء الجنود في البحرية من تدريبهم أن عليهم تفتيش المتمردين بحثاً عن الأسلحة والمتفجرات بعد السيطرة عليهم بدلاً من تركهم حيث يوجدون والبحث خارج المسجد عن المفرزة التي اتبعها حتى تصل.

وخلال مجرى هذه الأحداث كانت هناك الكثير من الظروف التخفيفية كتلك التي ذكرتها للتو والتي أوردتها في قصتي فقد ذكر أن الجندي الذي أطلق النار هو الآخر جاءه طلق في وجهه اليوم الذي سبقه.

كما أني أعي جيداً من خبرة عدة سنوات كمراسل حربي أن هناك أوقاتاً خصوصاً في هذا الصراع حين يقع الموتى والجرحى في مصائد تثير الشفقة ولا يستطيع أحد أن ينكر خصوصاً شخص مثلي عاش في منطقة حرب أن جندياً أو أحد مشاة البحرية أخطأ بصورة مشروعة حذراً من مثل هذه الظروف فالحرب هي عبارة عن اقتل عدوك قبل أن يقتلك.

وفي هذه الظروف المعينة التي أرسل منها تقريري فإن الذي يقلقني هو أن جندي البحرية لم يبد أنه قد اعتبر المتمرد الآخر تهديداً وهو الذي يتحرك بصورة واضحة تحت البطانية أو الاثنين اللذين يلياني وهما لا يزالان يتنفسان.

أنا لا استطيع أن أعرف ماذا كان بذهن رجل البحرية ذلك فهو الوحيد الذي قام بالعمل.

غير أني عند ملاحظة كل هذا كمراسل حربي ذي خبرة يحمل في تصوره دائماً عبثيات هذا الصراع حتى وإن كان عارفاً باحتمالات الظروف المخففة فيبدو لي بوضوح كبير أن شيئاً مغلوطاً قد وقع. وكما يقول العقيد (بوب ميلر) فإن قواعد الاشتباك في الفلوجة كانت تتطلب أن يحدد الجنود نية المعادي قبل استخدام القوة المميتة. وأني لم أكن أراقب الموقف عن بعد مائة قدم بل كنت في ذات الغرفة. وما عدا التنفس فإني لم ألحظ أية حركة إطلاقاً.

وإن التأكد من أنكم تعرفون أساس اختياراتي بعد الحادثة يسير بذات الأهمية التي تخص معرفة تسلسل الحادثة أولاًبأول ولم أشعر أبداً أني أفوز بجائزة للتصوير بالفيديو. لقد كان قلبي يعتصر ألماً في الواقع. ومباشرة بعد حادثة المسجد أبلغت آمر الوحدة بما حدث. وقد عبرت عن وجهة نظري معه وقد كان لذلك أثره على سلسلة القيادة برمتها وقد تعهد امري المارينز بالتعاون.

إننا نعرف جميعاً أنها قضية معقدة وأن لم ينظر إليها بصورة مسؤولة فقد تؤدي إلى أن تلتهب المنطقة المتفجرة. وقد عرضت أن احتفظ بالشريط حتى يتوفر الوقت للنظر في الحادثة والبدء في التحقيق وتزويدي بمعلومات تجيب على بعض التساؤلات.

إن أولئك الذين لا يمارسون الصحافة كمهنة قد يكون من الصعب عليهم فهم لماذا يجب علينا نشر مثل هذه التقارير أصلاً وخصوصاً إذا كانت مثل هذه التقارير انحرافات وتعسفاً ولا تمثل سلوك أو شخصية منظمة ككل متكامل.

والجواب ليس بهذه السهولة.

وفي الحرب كما في الحياة هناك العديد من الفرص التي يشاهدها المرء يعرض فيها الصالح والطالح من أعمال بني البشر. وكصحفيين تكون وظيفتنا أن ننشر الاثنين وإن كان لا يمثل أي منهما بصورة تامة أولئك الناس الذين يدور حولهم التقرير.

غير أن تغطيتنا لهذه الأحداث الفريدة مصحوبة برؤية أوسع ستساعدنا على وضوح الحقيقة بكل تعقيداتها. وهذا لا يجعل من قرار نشر الأحداث كهذه شيئاً سهلاً.

وعندما قامت شبكة NBCبإذاعة الخبر بعد ٤٨ ساعة قمنا بفعل ذلك بطريقة حاولت التخفيف جهد الإمكان من عمل ذلك الجندي. إننا نريد المشاهدين أن يتشكل لديهم فهم واضح للظروف المحيطة بالقتال على تلك الجبهة. وكثير من زملائنا يتحملون نفس المسؤولية بالضبط.

إن شبكات أجنبية أخرى اتخذت قرارات مختلفة وبسبب ذلك فقد أصبحت مسرب النزاع الذي استقدم هذا الموضوع إلى العالم.

إن عبء الحرب كما تعلمون يضع مسؤولية ثقيلة علينا جميعاً.

ترجمة: كاظم الحلفي
عن: الغارديان

وقائع الحرب بين شهادات الصور وايديولوجيات المشاهدين

❖ ايرول موريس

كل ما في الحياة يبدو متعلقا بالانكار - انكار الموت، انكار كل شيء من المناسب لنا انكاره. ويبدو ان التصوير الفوتوفراغي، بسبب علاقته السببية بالعالم، يعطينا الحقيقة او شيئا ما قريبا منها. وانا ذو طبع شكوكي فيما يتعلق بهذا لاسباب كثيرة. ولكن حتى لو كان التصوير الفوتوغرافي لا يقدم لنا الحقيقة على طبق من فضة، فانه يجعل من الاصعب علينا بالفعل انكار الواقع. فهو يضع وثاقا على التوهم، والتحادث، وخداع النفس. انه يوفر قيودا وحدودا. ويحد من قدرتنا على الكذب - على انفسنا وعلى الغير.

اننا نستطيع ان نتصور، في عزلة افكارنا، ان الحرب بطولية ومشرفة - بل ونبيلة. ويستطيع التصوير الفوتوغرافي ان يجعل من الصعب علينا ان نؤكد هذه الأوهام. خذوا شريط الفيديو الاخير الخاص بالمتمرد العراقي في الفلوجة والنار تطلق عليه فيقتل على يد جندي من المارينز، انه لا يخبرنا بكل ما نحن بحاجة الى معرفته عما حدث.

انه لا يقول لنا بماذا كان جندي المارينز يفكر او بماذا كان يفكر اسيره - اي بماذا كان يفكر قبل ان يردى قتيلا. لكنه يقول لنا ان شيئا ما قد حدث وهو، نتيجة لهذا، يجعل اطلاق النار، القتل، اكثر صعوبة على الانكار.

ولا شك في انه سيكون هناك تحقيق - محاولة لتوفير قرينة - لاضافة تفاصيل مختلفة: لماذا كان الاسير هناك ومن هو، وما اذا كان جندي المارينز يتصرف بناء على تعليمات من رؤسائه وماذا يمكن ان تكون تلك التعليمات، او ما اذا كان قد تصرف دفاعا عن النفس؟.

يبقى السؤال المركزي هو: ما الذي ننظر اليه؟ ولن يذهب هذا السؤال بعيدا، ليس اكثر مما ذهبت اليه صور (ابو غريب). والصور بينة مادية، وما دامت هكذا، فهي جزء من جهد لفهم ما حدث حقا.

ان الصور تجبرنا على تجميع افكارنا. انها تجعلنا نفكر بالقوة الدافعة، بالقصد - تجعلنا نفكر كيف نفسر خبراتنا، كيف نفكر بالعالم، كيف نحاول ان نفهم دوافع الاخرين. (ربما كان ذلك في حمض خلايانا النووي. اننا ننظر الى صور غيرنا من الناس ونريد ان نعرف: بماذا كانوا يفكرون؟). وعندما تكون الصورة صورة جريمة او عنف، فاننا نفكر بطريقة اشد، فمثل هذه الصور تجعلنا نهتم لانها تجعلنا جزءا من سر ما حدث، فنحن لسنا مجرد مراقبين. اننا محققون. اننا متورطون، اي شيء تعني الصور؟ ماذا تبدي؟ ما الذي ادى الى هذه الاحداث؟ هل هنالك ظروف مخففة؟ هل ذلك سيء كما يبدو لنا؟

ان الصور توفر نقطة تتجمع حولها اجزاء البينة الاخر، وهي جزء من بحث، وليست بديلا عنه. فهناك اسئلة حقيقية تستلزم اجابات. ولهذا لدينا قانون دولي، وقواعد للتعهد ومبادئ للسلوك العسكري. وهناك حقيقة للمسالة التي من المطلوب الفصل فيها، سواء كان ذلك قد تم بدم بارد ولذا فهي تشكل جريمة حرب، وان كان هناك من ينبغي اعتباره مسؤولا. فقد انتهى الامر بصور ابي غريب (تبعا للتحقيق) لان تكون ما بدت عليه حالها - صور تعذيب واساءة. كانت سيئة بالدرجة نفسها التي بدت عليها - بل اسوأ. وقد اعتبر بعض الجنود المتورطين مسؤولين، لكن المسؤولية لم تمض بعيدا جدا في ارتقاء سلسلة القيادة. وكان هناك، بالطبع، اولئك الذين كانوا يعتقدون بان التعذيب والاساءة كانا مبررين.

وللتعاسة، فان الحقيقة السديدة الخاصة بالطبيعة البشرية تقول لنا اننا في العادة ننبذ شهادة حواسنا نحن. فاذا كنا نريد ان نصدق شيئا ما، فاننا نجد عندئذ في الغالب طريقة لفعل ذلك بصرف النظر عن الشهادة التي تفيد العكس. فالتصديق هو الرؤية وليس طريقة اخرى هنا او هناك.

بالنسبة للكثير من الناس، سيتطور تفسير شريط الفيديو هذا الى اسئلة عامة حول العراق، فالناس سيفسرون هذا الشريط وفقا لميولهم الايديولوجية. فهل نحن ننظر الى وجه الحرية وهي تتقدم، ام الى اثر اقدام فيل هائل منفلت وقد ترك وراءه امتدادا من الجثث؟ بالنسبة للمؤمنين الصادقين بالحرب في العراق، لن تترك هذه الصور الا انطباعا قليلا. فالغايات التي تخاض من اجلها هذه الحرب، بالنسبة لهم، تبرر الوسائل. ان الحرب دموية، وحشية، والعدو شرير، غير ان هدف نشر الحرية يوازن ما يجب فعله لتحقيقه، ومن وجهة النظر هذه، بالنسبة لاناس، مثلي، يخامرهم الشك بشكل عميق في هذه الحرب، فان من غير الواضح ماذا يمكن ان تكون "غايات" هذه الحرب، فلا يبدو لي ان العراق اكثر حرية الان او سيكون كذلك في المستقبل القريب. قل اني رافض او شكوكي. غير ان ما اراه في الصحف يبدو جميعه شهادة على الايذاء. ولعدم وجود نهاية في الافق لهذه الحرب، فان الوسائل المرعبة - الاسلوب الذي تخاض به هذه الحرب - تبدو، في احسن الاحوال، مضللة، وفي اسوئها خاطئة بصورة خطيرة.

يقول جون كيغان في (وجه المعركة) عن معركة اغنكورت، ان هنري الخامس قد غزا فرنسا انطلاقا من طموح سياسي، فهو يود ان يكون اكثر من مجرد ملك لانكلترا. (حيث يعطي شكسبير الملك هنري قوله: ان اشارات الحرب تتقدم، فلا ملك لانكلترا ان لم يكن ملكا لفرنسا.). وفي نقطة الازمة في المعركة، يأمر هنري بقتل اسراه الفرنسيين. وهناك الكثير جدا منهم. ولو كان للموجة ان تنقلب ضد الانكليز، فان الاسرى الفرنسيين يمثلون تهديدا غير مقبول. ويكتب السيد كيغان عن قرار هنري قائلا: "انه قابل للفهم بالمنطق التكتيكي القاسي. لكنه بالتعبير الاخلاقي، العملي والانساني اصعب بكثير من ان يفهم".

ونحن، من نواح كثيرة، لم نتقدم كثيرا جدا في ستة قرون. والمفترض، ان اطلاق النار على اسير جريح غير مسلح ليس بمثال على المعاملة الانسانية التي توصي بها حمايات اتفاقيات جنيف. وهكذا، فاني اجد نفسي متراجعا الى ميولي الايديولوجية.

فقد اقلقني لبعض الوقت اننا ننزل في حفرة ارنب في العراق، اشبه بتلك التي نزلنا فيها في فيتنام. وهذا لا يعني ان فيتنام هي العراق. فالاوضاع الجيوسياسية مختلفة تماما. ومع هذا، هنالك عنصر مشترك - قابليتنا لخداع الذات، والانكار والمراوغة.

❖(ايرول موريس: مخرج سينمائي حائز على جائزة الاوسكار عن فيلمه التسجيلي: ضباب الحرب: احد عشر درسا من حياة روبرت مكنمارا)

ترجمة عادل العامل
عن نيويورك تايمز